

مقصدية النص ، معيل القراءة والتلقي في التراث النقدي العربي والغربي

The intentionality of the text, the standard for reading and receiving in the Arab and Western critical heritage

أ.م.د. محمد محمود ياسر الجوراني

الجامعة المستنصرية / كلية الآداب / قسم اللغة العربية

Mjoyrany@uomustansiriyah.edu.iq

Assistant Professor .Dr. Muhammad Mahmoud Yasser Al-Jourany

الملخص

عند الخوض في أي مجال بحثي أو دراسة معرفية فلا بد من تحديد مفهوم المصطلح؛ لكونه يزيل الإيهام ويوضح المسار الذي تتحرك فيه المصطلحات مبينة معانيه التي منها يُفهم مدلول النص، وقد خضع مصطلح النص -والذي لا يزال تعريفه قيد الجدل -إلى الدلالة المقصدية، على الرغم أن الدراسات التراثية العربية كلها، لم يعثر فيها على ذكر هذا المصطلح.

واعتمد الدارسون العرب على نظريات ومقولات علماء الغرب، لأجل قراءة واستنطاق التراث مما أدى إلى صعوبة اصطیاد ملامح هذا المصطلح، لدرجة أصبح فيها الفكر العربي المعاصر يتجاذب مع الغرب مصطلحاته الوافدة علينا، ولكونه نشاط لغوي منجز في حيز زمكاني معين، يحمل مميزات فردية وجماعية تعكس البيئة التي أنشئ فيها، فقد شكل مفهومه قطباً للدراسات المعاصرة المتعلقة به بأسماء عديدة منها: علم النص، لسانيات النص، نحو النص، وشهد اهتماماً واسعاً في الدراسات العربية والغربية حتى أصبح يخصص له علماً بذاته سُمي بـ (علم النص).

ويعد النص الوحدة الأساسية في التحليل والوصف لدى اللغويين، فهو ما يظهر به المعنى، ويعني ما لا يحتمل إلا معنى واحداً، وقيل ما لا يحتمل التأويل، وقيل ما زاد وضوحاً على الظاهر لمعنى في المتكلم، ولعل علم الكلام والبلاغة

والفقه، من العلوم التي أسهمت في تطوير دلالاته، بسبب السعي لفهم بنية النص القرآني وبيان وفهمه لأن النص القرآني ينماز بالكمال فهو مغني عن غيره من النصوص، وأنه "لا يحتمل إلا معنى واحداً.

الكلمات المفتاحية: (النص – المقصدية - القراءة - التلقي - التراث النقدي)

Summery

When delving into any field of research or cognitive study, it is necessary to define the concept of the term; because it removes illusion and clarifies the path along which the terms move, clarifying their meanings from which the meaning of the text can be understood. The term text, whose definition is still under debate, has been subject to the intended meaning, despite the fact that in all Arab heritage studies, no mention of this term was found.

Arab scholars relied on the theories and sayings of Western scholars, in order to read and interrogate the heritage, which led to the difficulty of capturing the features of this term, to the point where contemporary Arab thought began to attract with the West its terms that came to us, and because it is a linguistic activity completed in a specific space-time, carrying individual and collective characteristics that reflect the environment. In which it was created, its concept formed a pole for contemporary studies related to it under many names, including: textual science, textual linguistics, and textual grammar. It witnessed widespread interest in Arab and Western studies until it began to devote a science to it itself, which was called (textual science).

The text is considered the basic unit of analysis and description among linguists, as it is what the meaning appears through, and it means what can only be interpreted with one meaning. It was said that what cannot be interpreted, and it was said what increases clarity over the apparent meaning of the speaker. Perhaps the science of theology, rhetoric, and jurisprudence are among the sciences that contributed. In developing its meaning, due to the effort to understand the structure of the Qur'anic text, its clarification and understanding, because the Qur'anic text is characterized by its perfection, it is indistinguishable from other texts, and that "it can only bear one meaning.

Keywords: (text - intentionality - reading - reception - critical heritage)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وبه رجائي وثقتي.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الْمُتَفَضَّلِ وَالْمُنْعِمِ بِإِلْهَامِ الْحَمْدِ لِعَبِيدِهِ، حَمْدًا وَشُكْرًا مُوَافِيًا لِنِعْمِهِ، وَمُكَافِئًا لِمَزِيدِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ الْمُبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَقُدُوءَةً لِلْعَامِلِينَ، مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَالرَّسُولِ الْعَرَبِيِّ،

حبيب الرحمن وخليفه، ورسوله المؤتمن على تبليغ رسالاته وأداء تنزيله، الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة إلى سبيله، وعلى آله الطيبين الطاهرين مصابيح الظلم، وينابيع الحكيم، وشآبيب الكرم.

في كل دراسة تبحث في مجال معرفي يجب التحديد لمفهوم المصطلح؛ إذ أنه يزيل الإيهام ويوضح المسار الذي تتحرك فيه المصطلحات مبينة المعاني التي تحيط به وتتحكم فيه تبعاً لدلالاته التي منها يفهم مدلول النص، فمصطلح «النص» خضع إلى الدلالة المقصدية التي حددت وضعه اللغوي بأنه: يمثل أقصى الشيء وغايته، وله معنيان: أن يكون في مقابل المحل أو غير الظاهر فيكون على معنى غير محتمل للنقيض حسب الفهم من السياق؛ إذ أن تعريفه النص قيد الجدل، على الرغم أن الدراسات التراثية العربية كلها، لم يعثر فيها على ذكر هذا المصطلح، أي أن المفهوم موجود، لكن تداوله اسماً غائب، واعتمد الدارسون العرب على نظريات ومقولات علماء الغرب، لأجل قراءة واستنطاق التراث مما أدى إلى صعوبة اصطلياد ملامح هذا المصطلح، لدرجة أصبح فيها الفكر العربي المعاصر يتجاذب مع الغرب مصطلحاته الوافدة علينا، ويشير عبد المالك مرتاض: «فقد حاولنا أن نعثر على ذكر اللفظ في التراث العربي النقدي، فأعجزنا البحث ولم يفض بنا إلى شيء، إلا ما ذكر أبو عثمان الجاحظ في مقدمة كتابه "الحيوان" من أمر الكتابة بمفهوم التسجيل والتقييد، والتدوين والتخليد لا بالمفهوم الحديث للنص» (فلاح، نور الدين، ١٩٩٠م، صفحة ٣٨)، وهذه الإشارة تدخلنا في إشكالية المصطلح التي تحيلنا إلى عالم المعجم؛ إذ أصبح الدارس أو المتلقي العربي عاجز عن إيجاد المواءمة بين مصطلح النص والمعنى المعجمي له في تراثنا؛ لأن النص أصبح بؤرة لغوية كثيفة الدلالة، أفرزت مفاهيم جديدة حسب طبيعة كل علم؛ لكن وفي مقابل هذا نجد عند رأي الكثير من المفكرين العرب أنه لا إشكال في الاستفادة من أبحاث الغرب؛ لأن النص بمفهومه التراثي يشكل قطعة لغوية تتضمن خصائص مشتركة في كل اللغات وبأخذ «مفهوم النسيج أو الحياكة لما يبذله الكاتب من جهد في تنظيم أجزاءه، والرباط بينها بما يكون كلاً منسجماً مترابطاً» (الأنباري، محمد، ٢٠٠٨م، صفحة ٢٠)، أي أن مكونات اللغة فيه تتعالق في تشابك وتداخل تحكمه خيوط الدلالة لترسم لنا قصيدة معينة، وحتى نتقرب من فهم النص سنقف على أهم المفاهيم المشيرة إليه من زوايا علوم منهجية علمية عديدة.

مفهوم النص اصطلاحاً وإسهامات علماء العرب في دراساته

مفهوم النص:

إن ضبط مصطلح النص قديماً وحديثاً استعصى على العلماء فتشعبت تعريفاته ومفاهيمه وفقاً لتعدد المنطلقات عند كل مجموعة لغوية، وظل النص صناعة تدور في فلكها كل ما ينتجه العقل العربي؛ لأن مداره لم يتجاوز سلطة النص المقدس؛ إذ لم يحظ من النصوص العربية بعناية الباحثين والعلماء مثلما حظي به القرآن الكريم. (شرشار، عبد القادر، ٢٠٠٦م، صفحة ١٥)

ولكون النص نشاط لغوي منجز في حيز زمكاني معين، يحمل مميزات فردية وجماعية تعكس البيئة التي أنشئ فيها، لهذا كان ضبط المفهوم اللغوي لكلمة "النص" منطلقاً جيداً يقربنا من المعنى الاصطلاحي؛ لذلك فقد شكل مفهومه قطباً للدراسات المعاصرة بدليل اختصاص الدراسات المتعلقة بالنص بأسماء عديدة منها علم النص، لسانيات النص، نحو النص، وكلها تلتقي في مجاوزة الجملة في التحليل إلى فضاء أوسع اصطلاح عليه بالفضاء النصي، وقد شهد مصطلح النص في الدراسات العربية والغربية اهتماماً واسعاً حتى أصبح يخصص له علماً بذاته سي علم النص.

الدلالة اللغوية:

وردت كلمة "نص" في لسان العرب في مادة "نصص"، "النص" رفعك الشيء وكل ما أظهر فقد نص، فهو يدل على ارتفاع الشيء، كما يطلق على الأمر إذا انكشف، وكل شيء أظهرته فقد نصصته، وأصل النص أقصى الشيء وغايته... ونص الأمر: شدته. (منظور، ابن، ٢٠٠٨م، الصفحات ٤٤٤١-٤٤٤٢)

أما الزمخشري فقد أحال النص إلى الارتفاع والانتصاب والحفاوة والرفعة والمنتهى، فقال: "والماشطة تنص العروس فتقعدها على المنصة؛ وهي تنص عليها أي: ترفعها؛ وبلغ الشيء نصه، أي: منتهاه. (الزمخشري، ٢٠٠٤م، صفحة ٦٣٦)

أما صاحب القاموس المحيط فقال: "النص (نص الحقائق) هو المنتهى، والاكتمال والقدرة والنضج" (بناني، محمد، ١٩٩٧م، صفحة ٤٠)، وقد أورد الفيروزآبادي قوله: (نص) الحديث رفعه، وانتصب ارتفع. (الفيروزآبادي، ١٩٩٧م، صفحة ٨٥٨).

ويعد النص الوحدة الأساسية في التحليل والوصف لدى اللغويين، فالنص ما يظهر به المعنى، وكل ملفوظ مهما كان حجمه يمكن أن يعد نصاً، ومن خلال هذا التعريفات نفهم أن كلمة نص تحمل جملة من الدلالات وهي: منتهى

الشيء، رفع الشيء، تحريكه، أعلاه، كما تعني أيضاً التحديد، والإظهار والرفع والإسناد والتوقيف والشدة، وهي مفاهيم تظل بعيدة شيئاً ما عن كنه هذا المصطلح، ويبقى معناه بحاجة إلى تركيز أكبر؛ لتقصي ماهيته الاصطلاحية.

الدلالة الاصطلاحية:

يعني ما لا يحتمل إلا معنى واحداً، وقيل ما لا يحتمل التأويل، وقيل ما زاد وضوحاً على الظاهر لمعنى في المتكلم وهو سوق الكلام لأجل المعنى، ولعل علم الكلام والبلاغة والفقه، من العلوم التي أسهمت في تطوير دلالاته، بسبب السعي لفهم بنية النص القرآني وبيانه وفهمه لأن النص القرآني ينماز بالكمال فهو مغني عن غيره من النصوص، وأنه "لا يحتمل إلا معنى واحداً".

(الشيرازي، ١٩٨٨م، صفحة ١٢٨)، أو هو "ما رفع في بيانه إلى أبعد غايته" (الباجي، أبو الوليد، ٢٠٠١م، صفحة ١٢)، ويتساوى في هذا الأمر النص المنطوق والمكتوب، وهذه الإشارات تربط دلالاته بالمنطوق فـ"النص" هو الواضح وضوحاً بحيث لا يحتمل سوى معنى واحداً، ويقابل النص المجمل الذي يتساوى فيه معنيان يصعب ترجيح أحدهما، ويكون (الظاهر) أقرب إلى النص لكون المعنى الراجح فيه هو المعنى القريب" (أبو زيد، نصر حامد، ٢٠١٧م، صفحة ١٨٠)، ما يؤشر في هذه التعريفات هو حصر النص في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهو مفهوم يظل بعيداً عن مفهومه لدى الغربيين؛ ولعل محاولة التقريب بينهما لا يفضي بنا إلى نتائج تذكر؛ لأن انتقاله إلى حيز الدراسات الأدبية وشيوعه في أكثر النظريات الأدبية والنقدية الحديثة، وضع المتلقي في حالة اضطراب يعيشها جراء قراءاته أو سماعه لهذا المصطلح، وهو يتردد في الدراسات الحديثة، وذلك لعدم مقدرته على الربط بين المفهوم (المعجمي العربي) الذي يعرفه وبين ما تبثه الحقول المعرفية في المصطلح من مفاهيم جديدة. (الأحمد، نهلة، ٢٠٠١م، صفحة ٨٨)؛ لهذا فإن المفهوم القديم ظلّ قاصراً؛ وصار ينظر إلى النص على أنه "كل بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات" (عبد الرحمن، طه، ٢٠٠٠م، صفحة ٣٥)؛ إذ يظهر النص شكلاً متكاملًا غير محدود الطول، يشكل الترابط فيه عنصراً رئيساً، بجملته من العلاقات المختلفة.

أما في مجال لسانيات النص: فقد عرفت له كثيراً من التعريفات الاصطلاحية إذ انتقل اللفظ من العرف العام الذي يستعمل اللغة إلى العرف الخاص الاصطلاحي، فقد ركز اللسانيون على جوانب النص، مثل حجمه ووظيفته التواصلية ووحدة الموضوع والروابط النصية، فمصطلح (النص) بارز في لغة النص؛ إذ هناك ارتباط بين الجانبين

المقصدي والمعرفي، ولهذه الوظيفة النصية التي يؤديها نص ما مؤشرات ويشار لها بوسائل داخل النص (لغوية) وأخرى خارج النص (سياقية)، ويعتبره كل من هاليداي "ورقية حسن وحدة دلالية (الزناد، الأزهر، ٢٠١٠م، صفحة ١٢)، أي أنه ليس وحدة شكل؛ بل وحدة معنى فهما يحاولان التركيز على وظيفة لغة النص داخل السياق كما أنهما يؤكدان على أن الوظائف تحتل مكانة أولى في العملية اللغوية؛ لأنه علامة لغوية أصلية تبرز الجانب الاتصالي والسميائي، فهو عند كل من بوجراند ودرسلر حدث اتصالي تتحقق نصيته إذا اجتمعت له سبعة معايير هي: (الربط والتماسك والقصدية والمقبولية والإخبارية والموقفية والتناص)؛ فالمقصدية تعني النص، والتقبل يتعلق بموقف المتلقي الذي يقر بأن المنطوقات اللغوية تكون نصاً متماسكاً، والإعلامية تتعلق بتحديد حدة النص والموقفية بمناسبة النص للموقف والتناص يكشف عن تبعية النص، فالنص "ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء معين تتقاطع وتتنافي ملفوظات عديدة مقطوعة من نصوص أخرى"، (كرستيفا، جوليا، ٢٠١٤م، صفحة ٢١)، وهو تناص مصنوع من نصوص أخرى موجود فيه ولكن بمستويات مختلفة حيث يتكون النص كما يقول (رولان بارت) هي كتابات كثيرة مركبة مأخوذة من ثقافات عدة تدخل مع بعضها في حوارات تتحاكى وتتعارض، والكتابة هي السمة الأساسية للنص، وقد أخذ بهذا التعريف جمهور من النّصيين وأخذوا في ذلك اعتبار المرسل والمتلقي وهدف النص.

النص في النقد العربي:

تعددت التعريفات والمفاهيم الخاصة بالنص في النقد العربي وهذا بتنوع التخصصات والاتجاهات والمدارس ومهما يكن من أمر فإن أبرز التعريفات للنص تعريف طه عبد الرحمن الذي يعده (كل بناء تركيب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات). (خمري، حسين، ٢٠١٦م، صفحة ٤٩)

أما الغدامي فيؤكد على تأكيد إجرائية النص وسعياً به إلى أقصاه بقوله: (أن النص كلي في حركة مرحلية لأنه نص بنيوي والبنية شمولية/ ومتحولة/ وذات تحكم ذاتي والنص يتحرك داخليا بحركة مفعمة بالحياة كي يكون بنية ليكون له هوية تميزه) (الغدامي، ١٩٩٨م، صفحة ٩٠)

وأوضح منذر عياشي عن فهمه لحقيقة النص بقوله: "فالنص دائم الإنتاج لأنه مستحدث بشدة ودائم التخلق لأنه دائماً في شأن ظهوراً وبيانياً ومستمر في الصيرورة؛ لأنه متحرك وقابل لكل زمان ومكان لأن فاعليته متولدة من ذاتيته النصية" (عياشي، منذر، ١٩٩٧م، صفحة ٥٥)

في حين يرى عبد السلام المسدي (أن النص تركيب وأداء وتقبل ذلك أن للمتلقي مع النص حالات متطورة وللنص شأن عند مباشرته للمرة الأولى ثم يكون له شأن آخر عند معاودته وشأن ثالث عند اختزاله ورابع عند الحديث عنه وهو كل مرة كأنه صار نصاً جديداً). (المسدي، عبد السلام، ١٩٩٥ م، صفحة ٥١)

أما محمد مفتاح فقد وضع معايير على العمل المنشأ والحكم بنصيته فقد نظر إلى النص من منطلقات ثلاث: (مفتاح، محمد، ١٩٩٧ م، الصفحات ٢٣-٢٨)

- أولها: تجاوز ثنائية الحقيقة والاحتمال؛ ليدل النص على الحقيقة والاحتمال والممكن.
 - ثانيها: تدريج المفهوم؛ حيث يطلق في الحقيقة على المكتوب المتحقق في كتابته علاقات مترابطة بين المكونات المعجمية والنحوية والدلالية والتداولية في زمان ومكان معين، وما لم تتحقق فيه هذه العلاقات يخرج عن إطار النص.
 - ثالثها: يعتمد على تدريج المعنى، فيؤخذ في الحسبان حجم النص، ونوعه واختلاف درجة دلالة النص باختلاف نوعه، واختلاف درجة دلالة الجمل في النص نفسه.
- إذ وضع مفتاح هذه المعايير أساساً في الحكم بالنصية على العمل المنشأ؛ فهو نسيج حقيقي تربط عناصره جملة من العلاقات تسخر كلها لخدمة المعنى، ليكون أقدر على تحقيق عملية الإيصال والتأثير أكثر في المتلقي/ القارئ، وهو أمر يسهم فيه المنطلق الثالث من خلال معرفة خصوصية كل نص والأسس التي تقوم عليها.
- ومما تقدم ينبغي الإشارة إلى أن مصطلح النص يمثل للنقد الحديث تحدياً وإشكالية معقدة ومصدراً لحوار خصب في المفاهيم والأفكار والمقاربات النقدية نتيجة للاهتمام الكبير بالنص تطورت استراتيجيات نصية خاصة تعنى بفحص النص ذاته والنظر إليه كبنية محايدة ومكتفية بذاتها ومعزولة عن سياقها الخارجي أو ارتباطاتها بالمؤلف أو القارئ أو المرجع الخارجي وقد دفع ذلك ببعض النقاد المحدثين؛ المتأثرين بالثورة اللسانية الحديثة إلى إعلاء شأن النص مع حساب بقية عناصر العملية الإبداعية بحيث أصبحت سلطة النص هي السلطة الطاغية.
- النص بين التراث والدراسات الغربية والنقد العربي:

في التراث:

لم يقتصر مفهوم النص- الذي تطور عن المفهوم القديم-، على الغربيين؛ بل إنما العلماء العرب بحثوا فيه ونظروا له وقدموا إسهامات علمية في مجال التنظير والتطبيق النصي، فقد دعا الجرجاني (ت ٤٧١هـ) إلى النظرة الشمولية التي تمكن القارئ من الوقوف على جماليات النص الأدبي في نظرية النظم والتي تبرز قيمتها النصية في أنها جمعت بين علوم كثيرة كالنحو والبلاغة والتفسير وذلك خدمة للنص القرآني وبيان أعجازه؛ فالنظرة الشمولية تمكن القارئ من تتبع جماليات النص الأدبي.

أما حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) فقد انفرد بنظرة أكثر شمولية للنص فهو أول من قسم القصيدة العربية إلى فصول، مبيناً أن هناك صلة بين مطلع القصيدة وآخرها و"زعم أن لها أحكاماً في البناء، وأدرك الصلة الرابطة بين مطلع القصيدة وما سماه بالمقطع وهو آخرها الذي يحمل في ثناياه الانطباع الأخير والنهائي عن القصيدة". (خليل، إبراهيم، ١٩٩٧م، الصفحات ٥٥-٥٦)

في حين أدرك «الباقلائي» أن القرآن نظام لغوي يقوم على غير مثال، حيث يقوم: "على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعبود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه من أساليب الكلام المعتاد" (الباقلائي، ١٩٧١م، صفحة ٣٥)، وقال: "إذا تأملته تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم، إنه خارج عن العادة وأنه معجز؛ وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز" حاصل" في جميعه (الباقلائي، ١٩٧١م، صفحة ٣٥)، فقد لاحظ أن وحدة لغوية بين النص مكتوباً والخطاب ملفوظاً يقف الإنجاز فيصلاً فيها بين الطرفين، وهو إدراك رائد للدراسات ومنها اللسانية العربية، تذكرنا اليوم بنظرية دي سوسير في اللغة والكلام أو نظرية تشومسكي في الكفاية والأداء، فقد رأى بعض النقاد أن النص القرآني يتسم بكل صفات النص، فهو يجمع في بنيته أشكال الكتابة جميعاً "كأنه أعاد الأبجدية إلى فطرتها، قبل الكتابة وفيما وراء الأنواع الكتابية" و"لغته ليست مجرد مفردات وتراكيب وإنما تحمل رؤيا معينة للإنسان والحياة وللكون أصلاً وغيباً ومالاً (أدونيس، بلا، صفحة ٣٤)، فالعرب وقفوا في ذاتيته، فذاتية النص تحليلها قراءة للمكتوب التي تجعل النص كلاماً يقوم بنفسه إزاء الكلام، ويظهر عبر إنجاز لغوي مختلف.

في الدراسات الغربية:

بالإشارة والتتبع لكلمة النص (textus) نجد أنها مأخوذة من الفعل نص (texere)؛ حيث يقابله بالعربية كلمة نسيج؛ ولعل الرابط بينهما هو خلق عمل منسجم متكامل وفق أسس وقواعد معينة؛ لأن "النص نسيج من الكلمات يترابط

بعضها ببعض، هذه الخيوط تجمع عناصر المختلفة والمتباعدة في كل واحد هو ما نطلق عليه مصطلح (نص)" (الزناد، الأزهر، ١٩٩٣، صفحة ١٢)، فخاصية النص الجمع بين العناصر المتباينة وصهرها في نسيج واحد متجانس؛ إذ تسهم في تحقيقه عناصر لغوية متشابكة، كما قيل إن النص هو: "النسيج لما فيه من تسلل في الأفكار وتوال للكلمات". (حمود، محمد، ١٩٩٣ م، صفحة ٢٥)

تعددت التعريفات الغربية الحديثة للنص بتعدد الاتجاهات والمدارس، ووفق تباين المنطلقات العلاقات المعقدة منها اللسانية؛ إذ أخذ علم اللغة النصي في التشكل والتبلور في سبعينات القرن العشرين، وقد وردت تعريفات سعى أصحابها لضبط معالم النص، نذكر منها:

- جوليا كريستيفا: اعتبرت النص نظام للميزة التواصلية؛ فهي تحدد النص كجهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بالربط بين كلام تواصل يهدف للإخبار المباشر، وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه فالنص إذن إنتاجية، ما يعني:

أ - أن علاقته باللسان هي علاقة إعادة توزيع (صادمة بناءة) ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية لا عبر المقولات اللسانية الخالصة.

ب - ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافي ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى. (كرستيفا، جوليا، ١٩٩٧ م، صفحة ٢١)

إنَّ تفاعلية بنى النص تجعله مفتوحاً على عديد الاحتمالات القرائية في المنهج المتبع من قبل الناص؛ لأن بعد عملية الإنتاج تبدأ عملية القراءة؛ لهذا فإن " أي نص كيفما كان نوعه نتاج عمليات معقدة من التفاعل والترابط؛" (يقطين، سعيد، ٢٠٠٥ م، صفحة ١٠٩)، فعملية القراءة والتفاعل المستمر مع النص المنتج هي إنتاج مستمر على مكامن الدلالة فيه.

- يوري لوتمان: لا يختلف عن سابقه في اعتبار النص بناء لغوي مترابط الأجزاء؛ حيث قسم المنتج الذهني (النص) - بوصفه مكوناً من متواليات من الوحدات اللغوية المترابطة فيما بينها والمنظمة في نسيج من الوحدات المتكاملة الدلالة - إلى بنية نصية فنية وأخرى غير فنية" (زيادية ومسعودي، حبيبة، ٢٠٠٩ م، صفحة ١٦)، فهذا البناء اللغوي مشكل من البنى المنسجمة دلاليّاً لتشكّل هيكلاً عاماً هو النص من خلال مجموعة من العلاقات المختلفة الداخلية

والخارجية، تسهم في جعل هذه البنية النصية بنية فنية تكون مفتوحة على القراءات من خلال ما تحويه من دلالات خفية خلف هذه المدونة الكلامية.

- في حين يدعو « تودوروف » إلى ضرورة التفريق بين الفقرة وبين النص؛ لأن " مفهوم النص لا يتموضع في نفس المستوى مع مفهوم الجملة وبهذا المعنى يجب تمييز النص الفقرة التي تمثل وحدة مطبعية لعدد من الجمل يمكن أن يكون النص جملة، كما يمكن أن يكون كتاباً بأكمله إن أهم ما يحدده هو استقلاليتته وانغلاقه " (زيادة ومسعودي، حبيبة، ٢٠٠٩ م، صفحة ١٦)، وهذا التعريف يشترك مع سابقه في اعتبار العنصر الأساس في تحديد مفهوم النص هو انغلاقه واستقلاليتته، معتبرين إياه بنية مغلقة لا يمكن فهمها إلا كوحدة مستقلة دون النظر إلى أي معطيات أخرى وهو أمر لا يخرج عن الاتجاه الشكلي الذي يعزل النص عن أي معطيات خارجية عند الدراسة.

- كما ذهب « كلاوس برينكر » إلى أن جل تعريفات النص لا تخرج عن اتجاهين: " الأول يقوم على أساس النظام اللغوي؛ وقد اعتمدت معظم التعريفات فيه على علم اللغة البنيوي والنحو التحويلي التوليدي إذ يظهر النص كتابع متماسك من الجمل، والاتجاه الآخر يقوم على نظرية التواصل فيعرف النص بوصفه فعلاً لغوياً معقداً يحاول المتكلم به أو كاتبه أن ينشئ علاقة تواصلية معينة مع السامع أو القارئ، ويقترح برينكر مفهوماً مدمجاً للنص ينظر لكلا جانبيه اللغوي البنيوي والتواصلية السياقي فيعرف النص بكونه وحدة لغوية وتواصلية في الوقت نفسه. (برينكر، كلاوس، ٢٠٠٥ م، الصفحات ٢٢-٢٩)

- أما « فان دايك » فيوضح مفهومه الخاص للنص؛ فيرى أن " النصوص لا تملك فقط بنى قاعدية على مستويات مختلفة (أصوات، كلمات، بناء الجملة، المعنى) ولكنها أيضاً تملك بنى أخرى مثل البنى العليا (الترسيمات) والبنى الأسلوبية، والبلاغية التي هي في عدد من مستويات النص مسؤولة عن التغيير، وعن البنية الإضافية " (فان دايك، توين، ٢٠٠٤ م، الصفحات ١٨٨-١٨٩)؛ فالنص عنده نسيج تتداخل في تشكيله عدة اختصاصات تجعله متعدد الأبعاد منفتحاً على القراءات.

من خلال هذه التعريفات التي كان لها خلفياتها ومبرراتها، حاول كثير من الباحثين ضبط تعريف جامع مانع يعكس فهمهم للنص يمكنهم من دراسة النصوص الأدبية، وسعى بعضهم لوضع تعريف يقرب بين وجهات النظر في فهم النص؛ الذي مفاده أن " النص وحدة كلامية مكونة من جملتين فأكثر، منطوقة أو مكتوبة لها بداية ونهاية تتحدد بها وتتداخل مع منتجها ولغتها في علاقة عضوية ثابتة، وهي تتجه إلى مخاطب معين أو مفترض ويمكن أن يصاحب تلك

الوحدة الكلامية بعض الإشارات السيميائية غير اللغوية التي قد تؤثر فيها (عبد الكريم، جمعان، ٢٠٠٩م، صفحة ٣٢)، فالنص باعتباره وحدة كلامية غير محدودة الطول، سمتها الكمال والتعالق يعد موجهاً للمتلقى/ القارئ - سواء أكان النص مسموعاً أو مكتوباً- يعمل على كشف دلالاته الخفية، من خلال تلك القراءة التأويلية، وهو ما يقودنا للتعرف على عنصر مهم ولصيق بالنص ألا وهو القراءة.

النص بين القراءة والتلقي

شكلت اللغة ببعديها المنطوق والمكتوب أهم وسائل الاتصال الإنساني، لذلك كانت العناية بانتقاء عناصرها وحسن صياغتها وتركيبها أمراً ضرورياً عبر الزمن، خاصة ما تعلق منها بالعمل الإبداعي، وفي السنوات الأخيرة أخذت الدراسات الحديثة في القرن العشرين تركيز اهتمامها على النص وطرق بنائه، بعد أن كان الاهتمام منصباً قبل ذلك على دراسة الجملة بمختلف مستوياتها.

تلقي النص:

الدراسات الحديثة عرفت تحولاً واضحاً في مجال دراستها؛ فبعد أن كانت عنايتها موجهة صوب المبدع ثم صوب النص أبدت بعد ذلك اهتماماً كبيراً بالمتلقي، وهذا التغيير في توجه الدراسات النقدية الحديثة غايته فهم النص والكشف عن أبعاده الدلالية؛ ولما كان النص كتب ليقرأ؛ فإن البحث في العلاقة التي تربط القارئ بالنص، أو الذات بالموضوع هو ما تروم نظرية التلقي الكشف عنه، هذه العلاقة المتداخلة بين الطرفين، التي قوامها التفاعل "من الصعب التمييز أو وضع حدود دقيقة بين الواقعة والتأويل، أو بين ما يمكن أن يقرأ في النص، وبين ما هو مقروء فيه فعلاً" (بو حسن، أحمد، ١٩٩٣م، صفحة ٢٣)؛ فالنص يحرض مخيلة المتلقي على الولوج إلى فضاءه واختراق نسيجه اللغوي، وصولاً إلى ما يختزنه من دلالات، عبر قراءاته المتتالية؛ وأرجع الدارسون فضل اكتمال مفهوم التلقي، إلى قطبين بارزين في الدراسات الحديثة هما العالمان الألمانيان: ياكوب وإيزر إذ "وضعا هيكلين نظريين لما يسمى جمالية التلقي، يمكن تقديم ياكوب بصفته المنظر الذي طور التلقي بوصفه ظاهرة تاريخية معيارية بطابع يعلو على الفردية في الاتجاه الذي سبقت له براغ؛ ويمكن تقديم إيزر بصفته أفضل من حدد العلاقة بين التلقي وتركيب العلامة في القراءة، في اتجاه هومنيوطيقا (تفسيرية) إنجاردن (ايفانكوس، ١٩٩٢م، صفحة ١٢٨)، فهذان القطبان عملا على إعادة الاعتبار إلى المتلقي، الذي ظل دوره مغيباً في الدراسات السابقة للعملية الإبداعية.

تباينت مجالات الاهتمام ومضامين البحث عند هذين الناقلين، وهذا ما جعل موضوع البحث عندهما مختلفاً؛ وهذا ما ستكشف عنه هذه الوقفة عند كل منهما.

ياوس:

أطروحة ياوس تقوم على نقد كل من الماركسية والشكلانية الروسية لضيق نظرتيها للعملية الأدبية، من خلال إسقاطهما لعنصر التلقي، ودوره في دعم العملية الإبداعية وتطويرها؛ فياوس يعتبر المتلقي أهم عنصر في الحدث التواصل؛ لأن "دراسة تاريخ التواصل الأدبي لن تتطور مادامت تتجاهل أهم قطب في حدث التواصل، أي المتلقي الذي أهمل لصالح المؤلف أو النص"

(كاظم، نادر، ٢٠٠٥م، صفحة ٢٧)، فالعلاقة بين العمل ومتلقيه أصبحت جدلية يقوم فيها المتلقي/ القارئ بالبحث في العناصر الجمالية لهذا النص، مقارناً إياها بالنصوص التي تراكت لديه بالقراءة؛ كما يعتمد ياوس في دراسة عملية التلقي على عنصر التأويل، معتبراً أفق الانتظار استراتيجية مساعدة على فهمها والخطوات التي تمر بها؛ إذ أن "تحليل التجربة الأدبية للقارئ تفلت من النزعة النفسانية التي هي عرضة لها، لوصف تلقي العمل، والأثر الناتج عنه، إذ كانت تشكل أفق انتظار جمهورها الأول، بمعنى الأنظمة المرجعية القابلة للشكل بصورة موضوعية والتي تكون بالنسبة لكل عمل في اللحظة التاريخية، التي يظهر فيها (بو حسن، أحمد، ٢٠١١م، صفحة ٢٩)؛ فالمتلقي/ القارئ يقبل على النص مسلحاً بخبرة تشكلت لديه من مراجع سابقة عبر اطلاع على إبداعات عدة، فتتداخل ممتلكات الذات القارئة من العناصر الجمالية مع ما يطرحه النص الجديد من عناصر فنية تدفعه للاستجابة، والقارئ عند ياوس شخص متمرس؛ يقبل على النص بجملة من التوقعات، زودته بها قراءاته المتواترة ورصيده الثقافي والمعرفي؛ لذلك كان "كل قارئ إنما يقرأ النص، وهو محكوم بأفقه الخاص ومنطوق على أعراف قرائية قد تمثلها؛ بمعنى أن ما يمكن أن نقرأه في النص محدد سلفاً من خلال الأفق الذي يسمح بالرؤية والفهم، فما يمكن رؤيته وفهمه، هو بالتحديد ما يكون مندرجاً في أفق أو نظام يمكن أن يفهم من خلالهما" (بو حسن، أحمد، ٢٠١١م، صفحة ٢٩)

أفق انتظار المتلقي/ القارئ أمر قابل للتغير والتطور؛ لأن عملية الفهم عند القراء تتباين باختلاف الزمن؛ فإذا كان المتلقي يقبل على قراءة النص مزوداً بالمعارف التي تراكت لديه عبر قراءات كثيرة ومختلفة؛ فإنه يأمل أن يحقق له النص أموراً قد رسخت في خياله، بفضل علاقته المتواصلة بالنصوص، إلا أن للعمل الأدبي أفقه الخاص الذي

لا يتطابق مع ما كان يأمله مع المتلقي فيفاجئه بأشياء جديدة تخلق لديه التفاعل الذي يهدف إليه صاحب النص/ المبدع؛ لذلك " حدد القارئ بين أفقين للانتظار: أفق سابق يكون عليه المتلقي قبل التقائه بالنص ويشكل الاقتناعات التي ترسخت بفعل القراءات المتعددة أما الانتظار الثاني وهو عامل ناتج عن تمازج النص بالقارئ أثناء القراءة؛ إذ تعتري الأفق مخالطة قد توافقه أو تخيب أماله، ويركز ياوس على عامل التخييب الذي من شأنه زحزحة الموروث وتطعيمه أو تحويله وتبديله، وخلق أفق جديد يخالفه" (بن التجاني، بنلحسن ، ٢٠١١م، صفحة ٥٢١)، فقدرة المبدع على خلق التميز في بناء نصه بشكل يتجاوز ما يتوقعه المتلقي يخلق فجوات بين الخبرات القرائية وما يطرحه النص؛ ذلك يصنع الفارق ويجعل عملية القراءة أكثر إمتاعاً.

إن ما يحقق للنص فاعليته هو إدراكه من قبل القارئ؛ لذا فإن "النص من منظور ياوس ينظر إليه في علاقته بسلسلة النصوص السابقة والتي تشكل النوع الأدبي وهذه العلاقة تابعة لسيرورة متوالية من إقامة الأفق وتشكيله أو كسره وتحطيمه أو تعديله وتصحيحه وهذا ذاته ما طالب به ياوس نفسه بتجاوزه فيما بعد من خلال التركيز على التواصل بين النص والمتلقي، والمتلقي السابق واللاحق وهكذا" (كاظم، نادر، ٢٠٠٣م، صفحة ٤٠)

سعى ياوس بتركيزه على دور المتلقي في العملية الإبداعية إلى إعادة الاعتبار لهذا الطرف الهام والأساسي بعد أن أقصي في ظل الدراسات النقدية السابقة.

• إيزر:

مثل إيزر القطب الثاني في جمالية التلقي بعد ياوس؛ حيث طرح مسألة التفاعل بين النص والقارئ، من خلال تلك الفراغات أو الفجوات التي ينبغي على المتلقي/ القارئ باستخدام خياله أن يملأها، ليتحقق تفاعله مع النص؛ وذلك في "إن الفراغات من منظور إيزر ليست شيئاً موضوعياً، أو واقعاً وجودياً معطى، لكنه موضوع يتم تشكيله، وتعديله من قبل القارئ، حين يدخل في علاقة تفاعل مع النص؛ إذ السمة المميزة لتلك الفراغات، أنها ذات طبيعة مهمة، غير محددة. (كاظم، نادر، ٢٠٠٣م، صفحة ٤٠)

جعل إيزر من المتلقي/ القارئ، شريكاً في بناء النص وتشكيله من خلال تفاعل البنى الإدراكية لديه مع تلك البنى التي يطرحها النص بالكشف عما يتضمنه النص من شبكة علاقات دلالية وذلك ببناء دلالات موازية لتلك التي يقدمها النص الأصلي؛ فقد " خطأ إيزر خطوات أكثر إيغالاً في إشراك الذات المتلقية، في بناء المعنى بواسطة فعل

الإدراك، وإن هذا الإسناد إلى الذات في تقرير المعنى والكشف عنه هو ما اصطلح عليه هوسرل بالقصدية، فالقراءة لديه نشاط ذاتي، نتاجه المعنى الذي يرشحه الفهم والإدراك، وإن المعنى الخفي والمحمول النهائي للنص قد كفا عن الحضور، طبقاً لجمالية القراءة لديه (موسى، بشرى، ٢٠٠١م، صفحة ٤٨)؛ إذ تتباين حقيقة النص من قارئ إلى آخر، لعدم تحديد تلك الفراغات التي تحتاج إلى ضبط من طرف المتلقي/ القارئ حسب إمكاناته وما لديه من قدرات، فالمتلقي/ القارئ يستقبل الرسالة ثم يضيف إليها فهمه، وفق الشروط التي تلقاها فيها؛ فقيمة النص لا تتحقق إلا بتحقيقه الاستجابة المرجوة.

إن خصوصية تركيب النص وما يتسم به بناءه من تماسك وانسجام يستوجب أن يكون المتلقي/ القارئ متمرساً وحصيفاً له قدرات خاصة تؤهله للتعمق في النص وفي بناءه لاكتشاف دلالاته الخفية والكشف عن المعاني المسكوت عنها؛ وذلك بسد تلك الفجوات التي تعتمد المبدع بثها في نصه، ومن ثم "فالنص الأدبي عند إيزر لا يشير إلى واقع مرجعي -كما لو كان وثيقة- ولكنه يمثل نموذجاً أو مثلاً مؤشراً مبنياً لتوجيه القارئ ومع ذلك فإن وضع هذه المؤشرات غير كاف لملئ الفراغات والفجوات وعدم التحديدات التي تتطلب من القارئ أن يملأها أو يحددها من طرف وضعيته أو ما يقدمه له النص من آفاق، إن المعنى لا يمكن أن يمسك به إلا كصورة". (بو حسن، أحمد، ٢٠١١م، صفحة ٣٦)

فعملية ملء الفراغات تتحكم فيها قدرة المتلقي ومدى اطلاعه؛ بحيث يحاول التقريب بين ما ترسخ في ذهنه من معارف، وبين ما يتيح النص عبر بناءه المختلفة.

يتحدث إيزر - إلى جانب المتلقي الحقيقي - عن القارئ الضمني، الذي يعتبر تفعيلاً لعملية الإبداع والتلقي على حد سواء؛ إذ يختلف هذا القارئ عن القراء الآخرين؛ حيث يرافق عملية البناء النصي عبر مختلف مراحلها وأدق لحظاتها، يستحضره المبدع في كل جزئيات النص ليضمن تأثيره؛ "فالقارئ الضمني مفهوم إجرائي ينم عن تحول التلقي إلى بنية نصية نتيجة للعلاقة الحوارية في النص وبذلك يعيد المعنى اكتماله في كل قراءة بواسطة التأويل بوصفه علماً يهدف إلى ترجيح المعنى الذي يرشحه الفهم والإدراك من خلال محاورة بنى النص لسد الفجوات، وتقديم بنية تأويلية جديدة" (موسى، بشرى، ٢٠٠١م، صفحة ٥١)، هذا ما يجعل القراءة عملية واعية تتجاوز قراءة الحس لتوغل في بنى النص، وهو ما يخلق تفاعل المتلقي ويشعره باللذة.

لقد سعت محاولات إيزر إلى ضبط جل الحالات الذاتية المرتبطة بفعل القراءة وتقديم تصور واضح يقترب من فهم طبيعة العمل الإبداعي.. إن الجهد الذي قام به هذان القطبان، لإعادة الاعتبار لدور المتلقي في بناء النص وتشكيله منح النقد الأدبي آفاقاً جديدة للدراسة والفهم، بيد أن هذا يدفعنا إلى ضرورة البحث في بني النص وما يمكن أن يحقق لهذا الأخير صفة النصية وفق ما يطرحه علم النص الحديث من مباحث وآليات.

• قراءة النص:

المبدع يدرك جيداً وهو بصدد إنشاء عمله أن ما ينشئه من عمل هو موجه إلى متلق ما وقراءته أمر أساسي في خلق التفاعل النصي بين طرفي العملية الإبداعية، لهذا وقبل الولوج في حيثيات هذه العملية، فإن الوقوف عند مفهوم فعل القراءة أمر لا غنى عنه، باعتبارها جزء لا يتجزأ عن العملية النصية.

مفهوم القراءة:

أ- المفهوم اللغوي:

نجد المعنى اللغوي العام للقراءة يتحدد في: "فعل التعرف على الحروف وتركيبها لفهم العلاقة الرابطة بين المكتوب والمقول" وهي أيضاً "إذاعة نص مكتوب بصوت مرتفع والانتقال من شفرة المكتوب إلى شفرة المقول يفترض معرفة القوانين المتحكممة في عملية الانتقال هذه، والمؤسسة لعلم يسمى (ضبط لفظ) " وينظر إليها أيضاً على أنها فعل التتبع البصري لما هو مكتوب للتعرف على محتوياته ومضامينه. (حمود، محمد، ١٩٩٣ م، صفحة ١٣)

تقر هذه التعريفات بأن فعل القراءة غرضه التعرف على مضمون النص المقروء، بالاعتماد أساساً على حاسة البصر وهذا يتم من خلال " عملية انتقال مراوغة بين الدوال الصوتية المجسدة في أشكال الحروف الكتابية، والمدلولات المعنوية المجردة التي ليست سوى تلك التصورات والمفاهيم التي يضمها المرء عن الظواهر والأشياء الواقعة في محيطه (جهلان، محمد، ٢٠٠٨ م، صفحة ٤٦) ، فهذا الفهم يمكن تعميمه على مختلف النصوص من خلال انتقال الدوال عن طريق البصر إلى الذهن، ثم إعادة التعبير عن طريق الأشكال خلال أصوات مسموعة.

ب- المفهوم الاصطلاحي:

يتجاوز فعل القراءة المعنى السطحي الذي يعني التعرف على الحروف والربط بين ما ننطقه وما نراه أمامنا؛ فالمعنى الذي نصبوا إليه أعمق من هذا، وهو فهم المعاني التي يرمي إليها النص؛ لأنها "عملية سيكولوجية ذهنية معقدة... تعتمد على ميكانيزمات التذكر والتعرف والإدراك قصد التركيز على فهم دلالات الخطاب اللغوي ومضامينه (المصطفى، ابن عبد الله، ١٩٩٠م، صفحة ٢٧١)؛ إذ تتداخل في هذه العملية - القراءة - أمور تسهم في فهم أبعاد النص والمعاني المرجوة منه؛ ولعل التركيز أهم عناصرها، لهذا كانت محاولة التقريب بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي للقراءة يظهر تباينهما؛ لأن " القراءة بمفهومها اللغوي بدائية محدودة الأفق عاجزة عن الإحاطة بمكونات النص المقروء لافتقارها إلى الأدوات المساعدة على ذلك وهي قراءة خطية أو أفقية ... من خلال التعرف على الحروف وتركيبها؛ أما القراءة بمفهومها الثاني فهي قراءة عمودية باختراقها المنطق الخطي، إلى منطق عمودي يبتغي إدراك الدلالات المنطوية، داخل العلامات والعلاقات الرابطة بين التراكيب والجمل والمتواري في ثنايا المكتوب. (جهلان، محمد، ٢٠٠٨م، صفحة ٤٧).

فالغاية من القراءة هي الوصول إلى القراءة الفاعلة؛ التي تمكن صاحبها من إدراك كنه النص ومعانيه الخفية، التي ستكون لبنة لقراءة نقدية فيما بعد؛ فالقراءة نوعان: الأولى سطحية؛ تتوقف عند التعرف على الحروف وفهم معانيها المباشرة، وأخرى نقدية تقرأ النص استناداً إلى خلفية معرفية مسبقة به، لهذا تحاول أن تتعمق في معانيه لتكشف كنهها؛ فهي كما يقول حسن الواد هي "فعل خلاق يقرب الرمز من الرمز ويضم العلامة إلى العلامة، وسير إلى دروب ملتوية جدا من الدلالات، نصادفها حيناً ونتوهمها حيناً فنختلقها اختلاقاً" (الواد، حسن، ١٩٨٥م، صفحة ٧٠)؛ لهذا كان ضبط مصطلح ثابت للقراءة أمراً صعباً، لتعدد الاتجاهات والأسس التي تنطلق منها في فهم آليتها، ولما كانت القراءة تتعدى الفهم السطحي للنص إلى قراءة متأنية تغوص في أعماقه لتجهر بما فيه من معاني خفية وتسمح بفهم جديد له، فإن دور القارئ يكمن في تفجير المعاني الكامنة بين طيات النص لكن هذا لا يعني أبداً أنها عملية عشوائية؛ بل هي عملية مؤسسة محكمة القواعد؛ فالنص يبقى مفتوحاً لفهوم أخرى؛ لأن التطور الزمني يفتح الآفاق لاكتشاف معاني جديدة له باعتبار النص يشتمل على جوانب جمالية يمكن أن تتلاءم مع أي مرحلة تتم فيها عملية القراءة، بيد أن تعدد القراءات وانفتاحها لم يمكن من وضع مفهوم ثابت ومحدد لفعل القراءة، ومرد ذلك هو تعدد الاتجاهات والأسس التي يُنطلق منها في فهم آلية القراءة.

• أنواع القراءة:

تشكل القراءة بشكل عام طريقة مثلى للتحصيل المعرفي والعلمي، رغم منافسة بعض وسائل الاتصال لها فقد اكتسبت القراءة معاني جديدة؛ وغدت طريقة لإيضاح النص وإزالة العتمة عن كثير من زواياه من خلال ما يثيره النص من إحساس جمالي يفرض ردوداً معينة، غير أن التفاعل يتباين من قارئ إلى آخر وفقاً لطبيعة النص وما يحتويه من جوانب جمالية؛ لهذا قسمها الباحثون في علم النص إلى نوعين:

أ - قراءة استهلاكية:

هي قراءة بسيطة يكتفي فيها القارئ بالوقوف عند المعاني الظاهرة للنص المقروء، وما يطرحه من معاني مباشرة، دون أن يشغل نفسه بالغوص في أعماقها، وهي تضم ما أطلق عليه تودوروف تسمية قراءة الشرح (الغدامي، ١٩٩٨م، صفحة ٧٠)، قد تكون تكراراً ساذجاً يجتر الكلمات نفسها، وهذا اللون لن يفي بما ينشده المبدع / المرسل من وراء إنتاجه لعمله فتقصر بذلك عن تحقيق غاياته الإيصالية التي ينشد منها تفاعلاً مع ما يقوله.

ب - قراءة فاعلة (منتجة):

هي قراءة واعية، يذهب القارئ من وراءها بعيداً في فهم كنه النص، وما يخفيه من دلالات، باعتباره بنية من العلاقات المتشابكة تحمل أبعاداً تتجاوز ما يظهره النص؛ لهذا فإن هذا الأخير يبطن أكثر مما يظهر؛ فالمسكوت عنه يدفع بالقارئ إلى التعمق في قراءة النص وفهمه، واضعاً في الحسبان أن "النص لعالم مهول من العلاقات المتشابكة يلتقي فيه الزمن بكل أبعاده؛ حيث يتأسس في رحم الماضي وينبثق في الحاضر ويؤهل نفسه كإمكانية مستقبلية للتداخل مع نصوص آتية" (الغدامي، ١٩٩٨م، صفحة ٧٠)

القارئ في هذه الحال يستثمر آليات خاصة، تمكنه من التركيز على أدق التفاصيل لفهم النص؛ لكن هذه العملية لقارئ مؤهل لديه قدرات خاصة، تمكنه من تحليل الأفكار وتأويلها بطريقة ناجعة؛ لأن القراءة "تقرير لمصير النص من خلال استقبال القارئ له وقراءته، مرهون بالأدوات التي يستعملها أثناء مقاربتة له" (جهلان، محمد، ٢٠٠٨م، صفحة ٥١)، فدور القارئ هو تقديم فهم للنص، وتوضيح ما يتضمنه من انحرافات لغوية تمنحه أبعاداً جديدة، لتفتح آفاقاً جديدة للنص تفاجئ القارئ وتدفعه للتركيز أكثر، والتفاعل معها أيضاً من خلال استخدام أفضل لخياله؛ إذ يسعى لملئ فراغات هذا النص وجعل قراءته فاعلة يختار كل قارئ من النص أجزاء تهمه تبعاً لمعارفه وحاجته.

• مستويات القراءة:

لما تجاوزت القراءة التتبع البصري لما هو مكتوب والتغلغل في أعماق المعاني الخفية لفهم قصد المبدع، فإن هذه العملية تتفاوت بين قارئ وآخر، بحسب قدرات ومؤهلات كل واحد منهم، وتبعاً لدرجته العلمية والثقافية؛ لهذا كانت القراءة مستويات متباينة، لكنها متداخلة فيما بينها أثناء عملية الممارسة الفعلية لها؛ وهي:

أ- الفعالية التوثيقية:

تعتمد على القراءة الاستهلاكية السطحية؛ إذ تركز على المعنى العام للنص (المعنى الظاهر)، فيسعى القارئ لشرحه شرحاً بسيطاً يكون إعادة صياغة لما يقوله الناص مع المحافظة على المعنى الذي يوحي به اللفظ؛ لذلك فهي قراءة تعد النص مخزن معلومات يجري اكتشافه واستجوابه، وليس عبارة عن مثير لأُسئلة تبحث استجابة وفق نظرية المثير والاستجابة" (جهلان، محمد، ٢٠٠٨م، صفحة ٥١)؛ ولعل من مساوئ هذه الفعالية القرائية هي إغلاقها النص واكتفاؤها بالمعاني المعجمية التي يعطينا إياها النص؛ فالقارئ فيها لا يتطلع لغير تلك المعاني المقدمة.

ب- الفعالية الإسقاطية:

يعتبر هذا النوع من الفعالية القرائية للنص ترجمة لجملة من الأشياء والمرجعيات؛ فالقارئ ينظر إلى النص على أنه " وثيقة لإثبات قضيته الشخصية أو الاجتماعية أو التاريخية (الغدامي، ١٩٩٨م، صفحة ٧٠)؛ لهذا يختلف فهم القارئ للنص، لتعدد الإسقاطات التي يوظفها أثناء عملية القراءة، لأن القارئ لا يركز على النص ولكنه يولي اهتمامه للمبدع والظروف التي أنشأ فيها النص بمختلف حيثياتها وجوانبها.

ج- الفعالية التأويلية:

تتعدى هذه الفعالية القرائية المعنى الظاهر للنص من خلال عملها عن استنطاق عناصره الغائبة، فالقارئ هنا لا يكف النص والسعي لجعله يبوح بكل ما يخفيه من معاني في حوار دائم؛ لأن " القراءة بحسب الفاعلية التأويلية انتهاك لقوانين العادة، وإقامة قوانين وأسس جديدة، إنها قراءة لا تميم المعنى ولا تمنح القارئ الحرية المطلقة في تصرفه مع النص بحسب أهوائه ومشاعره بل تؤمن بأن المعنى هو غاية كل تواصل" (جهلان، محمد، ٢٠٠٨م، صفحة ٥٥)؛ إذ يعطي القارئ هنا وجوداً جديداً للنص فيقدم فهمه الخاص؛ وبذلك فالقراءة هي عملية محاورة بين

القارئ والمبدع، من خلال النص الأول (المبدع) والثاني (الناتج عن القراءة والتأويل)؛ إذ "يعيد المعنى اكتماله في كل قراءة التأويل بوصفه علماً يهدف إلى ترجيح المعنى الذي يرشحه الفهم والإدراك من خلال محاوره بنى النص لسد الفجوات وتقديم بنية تأويلية جديدة". (موسى، بشرى، ٢٠٠١م، صفحة ٥١).

فكل قراءة تنير جوانب جديدة من النص؛ حيث يسعى القارئ خلالها إلى فتح مغاليق الدلالة بواسطة إشارات علاماتيّة منطوية على تأثيرات دلالية إضافية، تتوارى خلف نسيج لغوي تتوزع منه الدلالة القائمة على ثنائية التلاحم والتفاعل بين الوحدات الصغرى والكبرى، الفاعلة في النص والمؤدية لوظائف تعبيرية معينة" (زيادية ومسعودي، حبيبة، ٢٠٠٩م، الصفحات ١٤-١٥)، فيغدو هذا النوع من القراءة محاولة لتفعيل النص؛ إذ يستمد القارئ فهمه من تلك المضمرات النصية التي يسعى لفك رموزها الدلالية، وإعادة لكشفها عن بنائه تفعيلاً لدلالته النصية.

الممارسة النصية عند البلاغيين والمفسرين العرب

التراث اللغوي العربي القديم غني بالممارسة النصية فهماً وتحليلاً وتفسيراً، وللعلماء العرب إسهام علمي ناضج في هذا المجال تنظيراً وتطبيقاً وبرز ذلك في ميادين البلاغة والنقد والتفسير، وقدم علماء العرب القدامى مفاهيم عدة لها علاقة وطيدة بما يعرف اليوم بلسانيات النص باعتباره حقل معرفي جديد يجعل من النص محور الدراسة، وخصوصاً الحديثة من خلال ما كتبه في النقد والبلاغة والنحو والتفسير وعلوم القرآن، إذ تعد البلاغة دعامة أساسية للدرس العربي القديم لارتباطها باستعمال اللغة، وكذا ارتباطها بمقصديّ الدفاع عن النص القرآني كونه يمثل رسالة اتصالية موجهة للبشرية صالحة لكل زمان ومكان، كما تعد البلاغة أحسن ما تناول إبراز العلاقات التداولية في اللغة لأنها تهتم بدراسة التعبير عن مختلف مستوياته اللفظية، التركيبية، والدلالية، والعلاقات القائمة بينها. (بوجادي، خليفة، ٢٠٠٩م، صفحة ١٥٤).

ألف "القرطاجي" كتاب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) في عصر بلغ النقد فيه فهماً واسعاً للتراكيب وتجاوز حدود الجملة إلى مستوى النص، حيث قسمه إلى أربعة مباحث هي: (اللفظ) يمثل معجم الجملة (المعنى) يمثل دلالة الجملة (النظم) يمثل تركيب الجملة (والأسلوب) يمثل المستوى النصي.

كما قدم "الجاحظ" في كتابه (البيان والتبيين) آراء نقدية تناول فيها ذم الشعر الركيك المفكك، الذي لا تتلاءم ألفاظ البيت الواحد فيه وكأن كل لفظة ليس لها علاقة بما قبلها وما بعدها، فهي ثقيلة على لسان القارئ يصعب

فهم معانيها؛ إذ يقول: ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض استكراه فمن ذلك قول الشاعر:

وقبُرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ وليس قُربُ قُبُرٍ حربٍ قُبُرٍ. (الجاحظ، ٢٠١٣ م، صفحة ٨/ج ٧).

وألف "ابن قتيبة" كتاب (تأويل مشكل القرآن)، بهدف الرد على الملاحدة الذين طعنوا في القرآن العظيم واتبعوا ما تشابه منه وادعوا للحن فيه والتناقض والاختلاف وتأولوا فيه كثيرا من القضايا، حيث يقول: فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون. (ابن قتيبة، ١٩٧٣ م، صفحة ٢٣)

أما الباقلاني فتحدث عن قضايا الفصل والوصل وعلاقة افتتاحية السورة بنهايتها وبتماسكها الكلي وترابط موضوعها، مما لها مكان هام في لسانيات النص الآن، من خلال نظرته للقرآن الكريم مبيناً أن سر إعجازه يكمن في أسلوبه « فالقرآن معجز في أسلوبه الذي يسير على سنن ونمط متجانس، دونما إخلال أو اضطراب أو تفاوت بين سورة وسورة ... فهو على الدوام منفرد بذلك الأسلوب... » (الباقلاني، ٢٠٠٩ م، صفحة ٢٠٥).

لقد أفضت البلاغة إلى تحولات كبرى، تمخضت عنها مناهج لسانية ونقدية اتسمت بحركة فكرية، والتي تجسدت في نظرية نصية عادت ارهاصات الأولى إلى علم البلاغة الكلاسيكية (فوافانجانج ، وفيهجر، ٢٠٠٤ م، صفحة ١١) ، وفن الخطابة، التي اهتمت بظواهر نصية تبحث في الصفات التي يجب توافرها في الخطاب لكي يكون مقنعا، ثم تحولت البلاغة إلى علم الأسلوب (فوافانجانج ، وفيهجر، ٢٠٠٤ م، الصفحات ١١-١٤) الذي عني بظواهر نصية تبحث عن أفضل طرق التعبير اللساني وعن مقاصد المتكلم وتحقيق شروط السياق، والناظر إلى علم البلاغة يؤكد أنها السابقة التاريخية لعلم النص؛ إذ نحن أخذنا في الاعتبار توجهها العام المتمثل في وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعددة وكذا تتوجه إلى المستمع لتؤثر فيه، وتلك العلاقات ذات خصوصية في البحث اللغوي النصي، فعملية الاتصال تجمع العلاقة بين أطراف الاتصال الأساسية (نص، منتج، متلق) وكيفية التفاعل بينهما. (فضل، صلاح، ١٩٩٢ م، صفحة ١٥٢).

فدراسة الأبنية النصية الخاصة، والوظائف الجمالية للنصوص وكذلك الاهتمام بفصيح الكلام الذي تتناسق معانيه مع ألفاظه كانت من اختصاص البلاغيين وقد نتجت من استقصاء العلماء وتبعيةم للهيئات اللسانية في

اللغة، وما كان عند العرب من العادات الكلامية عرضاً بليغاً وفصيحا للوصول إلى أرق المعاني وبلغها ولهذا كانت مؤسسة على ثوابت الثقافة الإسلامية والإرث العريق.

الخاتمة:

التراث البلاغي العربي على الرغم مما قدم من قراءات تناولت مضامينه المعرفية لا يزال حافلاً بجوانب لم يكشف عنها بعد، وفي العقود الثلاثة الأخيرة تم التوجه إلى الاعتناء بالنص ونتج عن هذا الاهتمام نشوء العديد من المفاهيم والتصورات والأفكار التي تجاوزت نطاق (أفق) الجملة إلى نطاق النص، وتجاوزت هذه الإنجازات البلاغة القديمة تجاوزاً ملحوظاً فلسفة وإنجازاً، وأبان التوجه الجديد المعروف بعلم النص عن قدرة عالية من الاحتواء والمرونة مكنته من احتلال صدارة المناهج اللغوية وأصبح إطاره النظري هو المحدد الفعلي والوحيد لما يعرف ببلاغة النص الحديثة.. إن ارتباط هذه الدراسات بنص محدد هو القرآن الكريم يُعد ممارسة نصية بلا شك، ويقترب في كثير من وجوهه من بعض المفاهيم التي تنادي بها لسانيات النص، ولما لهذا المفهوم من أهمية فقد تسابق الباحثون إلى البحث في جوانبه المتنوعة، خصوصاً جوانب اللغة والبيان، كما يتصف معظم علمائنا القدامى في العصور الحضارية السالفة بالموسوعية فقد ألفت دراساتهم وبحوثهم ومؤلفاتهم بمختلف العلوم الأساسية والتطبيقية، إلى جانب العلوم العقلية والفلسفية والدينية، والتاريخية والاجتماعية واللغوية، وكانوا مرآة صادقة لعصر تعاظمت فيه جهود العلماء ونشاطاتهم الفكرية.

قائمة المصادر والمراجع

١. إبراهيم خليل، ١٩٩٧م، *الأسلوبية ونظرية النص - دراسات وبحوث، نقد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر*، ط ١، *الأسلوبية ونظرية النص المؤسسة العربية للدراسات والنشر*
٢. ابن عبد الله المصطفى، ١٩٩٠م، *تعليم اللغة العربية وثقافتها*، ط ١، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط.
٣. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، ١٩٧٣م، *تأويل مشكل القرآن*، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، مصر، ط ٢.
٤. أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، ١٩٨٨م، *كتاب المعونة في الجدل*، تحقيق: عبد الحميد تركي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٥. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، ٢٠٠٨ م، *لسان العرب*، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، ط ١، دار المعارف، القاهرة.
٦. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ٢٠٠٤ م، *أساس البلاغة*، د. ط، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت - لبنان.
٧. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ١٩٨٢ م، *أساس البلاغة*، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، ط ٢، بيروت - لبنان.
٨. أبو الوليد الباجي، ٢٠٠١ م، *كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج*، تحقيق: عبد الحميد تركي، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان.
٩. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ١٩٩٢ م، *دلائل الإعجاز*، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط ٣.
١٠. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ١٩٧١ م، *إعجاز القرآن*، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط ٣.
١١. أبو حامد أبو زيد، ٢٠٠٠ م، *مفهوم النص دراسة في علوم القرآن*، ط ٥، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان.
١٢. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ١٩٩٨ م، *البيان والتبيين*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط ٢.
١٣. أحمد بوحسن، ٢٠١١ م، *نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث ضمن نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٢٤، الرباط - المغرب.
١٤. أدونيس، *النص القرآني وآفاق الكتابة*، دار الآداب، بيروت - لبنان، بدون سنة أو طبعة.
١٥. الأزهري الزناد، ١٩٩٣ م، *نسيج النص*، بحث فيما يكون به الملفوظ نصًا، المركز الثقافي العربي، ط ١، بيروت - لبنان والدار البيضاء - المغرب.
١٦. بشرى موسى صالح، ٢٠٠١ م، *نظرية التلقي أصول وتطبيقات*، ط ١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان.
١٧. تحسين خمري، ٢٠١٦ م، *نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال*، الدار العربية للعلوم - ناشرون - منشورات الاختلاف، بيروت - لبنان.

١٨. توين أ. فان دايك، ٢٠٠٤م، النص بني ووظائف مدخل أولي إلى علم النص ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص، ترجمة: منذر عياشي، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان والدار البيضاء - المغرب.
١٩. جلال الدين السيوطي، ١٩٧٣م، معترك القرآن في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد علي البجاوي، ط ١، دار الفكر العربي، القاهرة.
٢٠. جمعان بن عبد الكريم، ٢٠٠٩م، إشكالات النص دراسة لسانية نصية، ط ١، النادي الأدبي، والمركز الثقافي العربي، الرياض - المملكة العربية السعودية، والدار البيضاء - المغرب.
٢١. جوليا كرسيفا، ١٩٩٧م، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، ط ٢، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب.
٢٢. حسن الواد، ١٩٨٥م، قراءات في مناهج الدراسات الأدبية، د. ط، سراس للنشر، تونس.
٢٣. خليفة بوجادي، ٢٠٠٩م، في اللسانيات التداولية، محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر.
٢٤. خوسيه ماريا بوثيلو إيفانكوس، د. ت، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة: حامد أبو أحمد، د. ط، دار غريب للطباعة، القاهرة.
٢٥. سعيد يقطين، ٢٠٠٥م، النص إلى النص المترابط مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، ط ١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب.
٢٦. صلاح فضل، ١٩٩٢م، بلاغة الخطاب وعلم النص، د ط، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
٢٧. طه عبد الرحمن، ٢٠٠٠م، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط ٢، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، والدار البيضاء - المغرب.
٢٨. عبد السلام المسدي، ١٩٩٥م، قضية البنيوية - دراسة ونماذج، دار الجنوب للنشر، ط ٢، تونس.
٢٩. عبد القادر شرشار، ٢٠٠٦م، تحليل الخطاب الأدبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
٣٠. عبد الله الغدامي، ٢٠٠٦م، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرحية نظرية وتطبيق، ط ٦، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب.
٣١. فوافانجانج هاني، وديتر فيهجر، ٢٠٠٤م، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة: سعيد حسين بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط ١، القاهرة - مصر.

٣٢. كلاوس برينكر، ٢٠٠٥م، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمنهج، ترجمة: سعيد حسن بحيري، ط ١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.
٣٣. مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ١٩٩٧م، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٤. محمد أحمد جهلان، ٢٠٠٨م، فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ط ١، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق - سوريا.
٣٥. محمد الأخضر الصبيحي، ٢٠٠٨م، مدخل إلى علم النص، الدار العربية للعلوم، ط ١.
٣٦. محمد الصغير بناني، ١٩٩٧/١٢ع، مفهوم النص عند المنظرين القدماء، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر.
٣٧. محمد بن عبد الله الزركشي، ٢٠٠٦م، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبي الفضل الدمياطي، ط، أن دار الحديث، القاهرة - مصر.
٣٨. محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، ١٩٧٩م، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، وزارة الإعلام الكويتية، ط ٢، الكويت.
٣٩. محمد بنلحسن بن التجاني، ٢٠١١م، التلقي لدى حازم القرطاجني من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط ١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد - الأردن.
٤٠. محمد حمود، ١٩٩٣م، تدريس الأدب إستراتيجية القراءة والإقراء، د. ط، منشورات ديداكتيكا، المغرب.
٤١. محمد خطابي، ٢٠٠٦م، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط ٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، وبيروت - لبنان.
٤٢. محمد لخضر زيايدة وحبوبة الطاهر مسعودي، ٢٠٠٩م، أدبية البنية النصية في ضوء العملية الإبداعية والممارسة النقدية، د. ط، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.
٤٣. محمد مفتاح، ١٩٩٧م، مسألة مفهوم النص، د ط، منشورات كلية الآداب والعلوم، جامعة محمد الخامس، وجدة.
٤٤. مصطفى الكيلاني، ١٩٩٤م، في الميثا لغوي والنص والقراءة، منشورات دار أمية، دار المعارف، تونس.
٤٥. منذر عياشي، ١٩٩٧م، النص ممارسته وتجلياته، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت - لبنان، ع ٩٠.
٤٦. نادر كاظم، ٢٠٠٥م، المقامات والتلقي بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمداني في النقد الحديث، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار فارس للتوزيع والنشر، بيروت، الأردن.

٤٧. نهلة الأحمد، ٢٠٠١ م، *ما هو النص*، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية، ع ٤٥١.
٤٨. نور الدين الفلاح، ١٩٩٠ م، *في مفهوم النص*، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، (د.ط.).